قصة قصيرة

الجدار

محمود سعيد

في البدء كان نباحه منتظماً كدقات الساعة ، يقتحم الذهن ، وحيداً متفرداً ، في ظلام الليل الساكن ، ثم أخذ الصوت يضعف ، يضطرب ، يتحشرج ، يكاد يختنق ، يتلاشى ، ثم لا يلبث أن ينفجر صرخة ألم مدماة . . عواء طويل رقيق ، يتخبط في مسار الآلام والعناء .

ظنه حلماً كئيباً ، استيقظ على تواصله ، بيد أنه بدا حقيقة مؤلمة قضت مضجعه حتى استحال مع الظلام كابوساً ، شوكة في الفراش ، تقلب في سريره ، تعلق بأهداب النوم عبثاً ، فتح عينيه ، من أين يأتي الصوت !؟ كلب يئن ، يتحشرج ، ليس في الطريق . . أين يمكن ان يكون ؟ . عند الجيران ؟ . في الحديقة ؟ .

كانت امه واخوه غارقين في النوم ، نهض على رؤوس الأصابع ، جاس في المطبخ الصغير ، اراد ان يقرأ ، فتح صفحة نظر اليها برهة ، لم يفهم شيئاً ، الكتاب كان صفحة من الصفيح تعكس ضوءاً صلباً كالدبابيس ، رجع الى السرير ، تقلب مع صوت الكلب ، متى أغفى ؟ . لم يدر ، لكنه استيقظ بعد الآخرين ودبابيس ساخنة تحرق عينيه .

كان الجو صحواً ، والربيع يتمطى كمهر في عنفوانه ، وشمس الصباح تترع « الطارقة » الصغيرة بدفء لذيذ يدغدغه نسيم بارد لم يفلح في تهدئة اعصابه ، انفجر حينما اطلع على نتيجة مجيد بصوت مجنون :

ـ قلت لك انك يجب ان تحصل على معدل يمكنك من الدراسة في قسم داخلي خارج البصرة ، الم تعدني بذلك؟

ـ بلى .

ـ ألم أعرض عليك أن آتيك بالمدرسين ؟

ـ بلى .

ـ أحققت وعدك ؟ .

وفيما كان يحتد ، يتفجر براكين محرقة ، كان مجيد يتضاءل ، ينكمش ، يصفر ، حتى لم يبق من ملامح وجهه سوى إهاب أسمر ، تتآكله بقع « النخالة » الخضراء إرتجفت يمناه تحت ثقل ورقة النتيجة ، لمعت في عينيه دمعتان طريتان ، فيما اندفعت امرأة في الستين ممتلئة ، تغالب بصعوبة التهاب المفاصل في رجلها اليسرى ، هتفت مرتعبة وهي تنظر في عيني مجيد :

ـ رسبت ؟ . يا ويلي ! .

وجد مجيد لسانه اخيراً ، هتف بصوت يهدجه انفعال دامع :

ـ انا من الثلاثة الأوائل في المدرسة ، ماذا تريدون اكثر من ذلك ؟ . . . وبدون شعور مدت يدها الى بطنها ، كمن صفعته موجة مرض مفاجىء، إتكأت الى الجدار ، ثم جلست على الأرض، تغضن وجهها ، لهثت :

ـ تعال أقبلك .

ركض الاثنان نحوها :

ـ ما بك .

ـ غالبت المرض .

ـ مغص انتهى . . لا شيء . .

بدأ الكلب يعوي من جديد ، كأنه يحتضر ، انتفض حميد ، رانت لحظة صمت تدحرجت فيه دمعتان على خدي الأم ، تحشرج صوت الكلب من جديد ، فقد حميد اعصابه : « اين هذا الكلب ؟» . لمعت عينا اخيه الصفراوان : « في بيت المقدم » .

أشار الى حديقة الجيران ، جدار يعلو متراً ونصف المتر يفصلها عنهم ، حاول ان يهدىء اعصابه لكن موجة عارمة من الداخل جعلته يغضب من جديد ، تهدج صوته في تحسر وضعف وانسحاق، عاتب بمرارة :

ـ قلت لك انها فرصتي الأخيرة كي أعيش حياتي الخاصة ، افهمتك كل ظروفي،القبول الذي جاءني ، أريد أن أكمل دراستي كباقي الناس في الخارج ، أتنفس بعض الهواء النقي حراً ، أتحرر من مسؤوليتكم ، لن يتحقق كل ذلك الا بقبولك في قسم داخلي حيث تعيش الوالدة مع احد اخوتك الى أن ارجع .

وكانت شابة في الثلاثين قد دخلت دون ان يتنبه اليها احد ، واندفع من يدها طفل في الرابعة ، اسمر ، احمرت أرنبة انفه من برد الصباح ، الى ذراعي حميد ، إتكأ على صدره ، ادار وجهه الى امه ، فتساءلت هذه مرتاعة .

ـ ما هذا الوجوم ؟ . قالوا لي إنك نجحت .

اكد مجيد :

ـ نجحت بالفعل . . لكني لا استطيع الذهاب الى القسم الداخلي ببغداد .

إحتجت : « ولمَ في بغداد ؟ ادرس هنا » .

لم يلتفت حميد اليها ، اكمل :

ـ بلغت الخامسة والثلاثين ، منذ سبعة عشر عاماً ، منذ أن كان عمرك بضعة اشهر وأنا أعولكم ، أوصلت اخوتك الثلاثة ، زوجت اختك هذه ، وها انذا أريد ان احقق حلمي الوحيد ، الفرصة الأخيرة لي . . انت قضيت عليها .

وضع وجهه بين يديه ، إتكأ الى الجدار ، خيل اليه انه فقد ملامحه البشرية ، أصبح تمثالاً لليأس مجسماً ، لم يكن من هواة الأحلام ، يكفيه حلم واحد ، أغرقه بالآمال منذ ان سقطت التركة الثقيلة على رأسه ، أم وثلاثة إخوه واخت ، لم يبن أي قصر في الخيال : فقط : عشرة دنانير يدخرها كل شهر في المصرف ، كم أصبحت الآن؟ . الف وستمائة وعشرة دنانير ، يحسبها كل شهر منذ ان اشتغل ليعيل القطيع العاق . . الناكر للجميل ، مبلغ كاف له كي يكمل دراسته في بلد أوروبي ، يغسل القلب من أوساخ وجيف الكد والقهر ليرجع قبل أن يصل الأربعين ، أهذا وهم؟ ربما وهم . . أيجوز انه اختلقه كي ينقذه من اليأس ؟ . . الطبيب والمهندس والضابط الذين « بزرهم » أبوه اعالهم وأوصلهم ، لكنهم انسحبوا بخبث ، انسلوا كما تنسل الشعرة من العجين ، لماذا وحده يعاني ؟ كلهم يعيشون بنعيم وبذخ ، وهو يكافح في سبيل تحقيق حلم يسره وحققه لهم ، احس بهذا الحلم يموت في صدره ، يتضخم ميتاً متعفناً كالجثة المتفسخة .

ـ لن تكمل دراستك .

فاجأته بشرى بجد ، طافت موجة شعاع ملتهب في عينيها الواسعتين ، نظر اليها ساخراً .

ـ إننا نحتاجك .

ـ أأنا أخوكم الوحيد ؟

ـ نعم انت الوحيد .

ـ والباقون ؟

ـ كلاب . . نعم كلاب . . يومان مكثت عند فريد ، طبيب يملك نصف الدنيا ، وارده اليومي بقدر راتبك ، مئة وعشرون ديناراً ينثرها على رأس زوجته كل يوم ، لم يتحملني وزوجي المريض يومين ، يدخل عابس الوجه ويخرج عابس الوجه كالقرد ، اهذا اخ ؟ . وذلك المهندس الذي يعيش مع زوجته في الخارج ويقضي الصيف في سويسرا كل سنة مع اطفاله ، اعرفنا بهدية ولو قطعة قماش طيلة عشر سنوات منذ ان تخرج . وهذا الضابط الذي يلعب بالفلوس أرأينا وجهه منذ تخرج ؟ كلهم حقراء أنذال ، ليسوا إخوتنا ، انت اخونا الوحيد ، أبونا وأمنا ، لم نعرف سواك اصبحوا من عالم غير عالمنا ، عالم الأغنياء ، لا يريدوننا ولا نريدهم ، ستبقى لتعيش معنا ، وتساعدنا ، انظر الى ابني هذا ، ماذا يرتدي ؟ هذه الدشداشة الوحيدة التي عنده ، مرتقة في عشرة امكنة ، اتعلم اننا لم نذق اللحم منذ اسبوعين ؟ ولم نر برتقالة واحدة منذ أن ارسلت لنا ذلك الكيس قبل اربعة اشهر ؟ . .

طفقت تبكي بحرقة ، بينما أخذت أمها تمسح دموعها بذيل عصابتها .

ـ جئتك كي تنقذني ، ولا بد أن تفعل . . أين أذهب ؟

ـ قاطع بنفاد صبر :

ـ لهذا جئت اذن ؟

ـ نعم . . لهذا جئت ، اريد مساعدتك ، خدمة عشر سنوات ذهبت كلها دون اي تعويض ، والدكان التي كنا سنؤجرها جاء عميد متقاعد رفع « سر قفليتها » الى ستمائة دينار . . من مئة الى ستمائة ، لا نستطيع ان نؤجر غيرها لأنها الأقرب الى الدار ، وهو مريض شلت رجله . . . الى من نتوجه ؟

لطف لهجته :

ـ أأنا الذي طلبت من زوجك ان يكون بطلاً ؟

ـ لا . . . لكن كنت معجباً بشهامته وصفاء تفكيره ، وثباته على مبادئه ، كنت تفضله على كل اخوتك .

نظرت اليها امها بتشجيع ، أضافت وقد أعدتها حماسة ابنتها :

ـ كلميه عن سلمى .

فهتف متضايقاً :

ـ قلت لكم الف مرة اني لا اتزوج الآن .

كانت قد اعدت له بضعة اسماء فتيات اختارتهن له ،وكانت تبغي ان تربطه الى المكان الذي لا تريد ان تغادره الا الى القبر ، لكن هتافه وأد الكلمات في فمها ، قبل أن تشرع بفتح شفتيها :

ـ أي زواج واطفال ومعيشة؟ أي شيء يحققه راتب الإعدادية الزهيد ؟ وفي هذا القبر . .

اشار الى الدار ذات الغرفة اليتيمة ، قاطعت اخته :

ـ لم لمَ لا ؟ . أكتب على الفقير ان لا يتزوج ؟ ما الفرق بين حياتنا وحياة فريد الطبيب ؟ أو صالح المهندس ؟ أو فاظل الضابط ؟ الحياة نفسها بدل الحصيرة سجادة ايرانية ، وبدل اللحم عدس .

اغرق بالضحك برهة ثم صمت ، رانت على وجهه ابتسامة صفراء، اي مستقبل رتيب مظلم ينتظره ؟ مات عمره كله . امله .

نوّص الكلب من جديد ، كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، اي روح طويلة عند هذا الحيوان لو يموت لينهي هذه الموسيقى الجنائزية ، صوت مستقبله المتسربل بالقنوط، بالموت يدب في عروقه .

احسّ مجيد ان اخاه يفكر بالكلب ، وقال :

ـ البارحة قتل الأطفال كلباً بالحجارة قرب الباب .

اراد أن يقول له : « كما تقتلونني انتم » سأله : « اتعرف مكانه؟» .

ـ من ؟

ـ هذا الذي يعوي في الليل .

ابتسم مجيد ، اشار الى حديقة الجيران : « لا بد انه هنا » .

من بين اغصان الجهنمية الحمراء ، أطلا الى حديقة الدار الواسعة ، شجيرات الأشرفي تتفتق عن ورود بحجم الرمانة الكبيرة ، الوان متدرجة في العمق والانفتاح ، زهور الياسمين الأحمر والأبيض تزغرد على الأسيجة ، زنبق على شكل هندسي ، دوالي عنب ، زهور منمنمة في ألوانشتى ، الحديقة وحدها اكبر من دارته الصغيرة المؤجرة اكثر من عشرة اضعاف .

آنسته اشراقة الورود نفسه ، ابتسم رغماً عنه ، ترك نظره يتسكع كسلاً متلذذاً متشرباً انغاماً فردوسية منعشة ، يا للألوان البهيجة ! . . ستائر الآس مقوصة بعناية فائقة كجدران سماوية ، بساط الزبرجد يلتهم الممرات ، الممرات الناعسة بشذى الفجر ، يحتضن بغرام ملائكي فسقية من الموزائيك الأزرق في وسط مربع ضلعه ثلاثون متراً، كيف يتمكن بعض الناس من خلق جنانهم ؟ لكزه اخوه مشيراً الى الكلب : « ذاك هو » قال له : « انزل وانقذه» . « هتفت الأخت مرتعبة : « لا . . لن ينزل احد ، منذ ان سرقت دارهم قبل ثلاثة اشهر اقسم المقدم ان يقتل كل من يراه يحوم حول البيت » . حدق حميد مفكراً بحالة الكلب المشدود من رقبته الى شجيرة ورد صفراء ، وقد تجمدت الدماء على انفه الصغير ، كان شعره عند الرقبة كالزغب الخفيف ، أشبه بقطيفة اسطورية سمراء تميل الى صفرة مغبرة .

توجه نحو المطبخ ، جاء بسكين صغيرة ، بدون تردد ، تسلق الجدار ، قفز الى حديقة الجار ، في الوقت الذي كبتت اخته رغبة شديدة وبصعوبة في ان تصرخ ، ردد اخوه دون شعور : « سيقتلك ان رآك » .

جاءت الأم الى « الطارمة » وبيدها صينية الشاي ، وحينما شاهدت الكلب ، نظرت الى حميد مؤنبة ، ابتسمت لم تقل شيئاً ، لكنها هتفت بألم « وماذا بيدك ؟» أحس حميد بغرزة وسلخ في ساعده لم يأبه له وهو يقص الحبال العديدة التي كانت تربط الكلب الى اشواك شجيرة الورد ، لكن صوت امه نبهه الى الجرح ، لم يتوقع غزارة دم كهذه ، في حمية الحركة تمزق الردن واصطبغ بدم قانٍ ، ربت على كومة الفراء البطرية المستكينة بأمان امامه ، لم يحاول الكلب العجوز الإفلات أغمض عينيه من جديد ، لكن عندما رأى الحليب امامه في إناء صغير انتفض وأخذ يلعقه ، مرقصاً ذيله بسعادة ، ثم استكان الى نوم عميق كان هرماً رقيقاً ، يطل على بوابة الفناء ، وعندما حمله حميد ارخى رقبته على ساعده كطفل مدلل ، فيما بداشعره ناعماً وكأنه ممشط بعناية شوهها خث الدم القاني الذي لم يكد يتيبس ، وظهرت بين ثنايا الشعر الخفيف عند البطن بضع قرادات ملتصقة بالجلد ، لم يقاوم ، كان من الهرم بحيث انه ترك امر حياته والآتي من ايامه القليلة للمقادير تديرها أنى شاءت .

فتح الباب ، وضعه بعناية قرب «برميل » القمامة ، ودخل .

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايات

- الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)
- الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)
- أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)

قصص

- أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)
- أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)

آفاق « الآداب »

- في معترك القومية والحرية (ط ٢)
- مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)

مترجمات (صدرت أخيراً)

- الطاعون ـ لألبير كامو
- الثلج يشتعل ـ لربجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم ـ لروجيه غارودي